سر من أسرار العربية

نرجو أن نصل إلى حقيقته في السليقة العربية

لمحمود محمد شاكر

فرغنا في الكلمة السالفة من تقرير مخارج الحروف العربية ، ومدارجها وصفة مواقعها من الحلق واللسان وغار الحنك الأعلى والثنايا والأضراس واللثة والخياشيم وسائر الفم وما يحيط به ، وأبنّا عن مبلغ تباعدها وتقاربها وما يأتلف منها في المخارج وما لا يأتلف ، وترسّمنا على مجرى ذلك بالتحرّي والضبط والإتقان ، ثم قسمناها لك على وجوه الاشتراك في صدى الصوت وما يلحقها من الإطباق والانفتاح ، والاستعلاء والانخفاض ، وما يلابسها من الرخاوة والشدة ، وجعلنا ذلك كله مقدمة تقول في « علم معاني أصوات الحروف » ، ونحن « إن شاء الله » نذكر لك بعض ما عرض لنا من الرأي في هذا العلم

ونحن نريد أن نأخذ معاني هذه الأصوات التي تدل على حروف العربية من جهة طبيعة الإنسان حين يريد العبارة عن شيء في نفسه أحسّ به أو عزم عليه ، محاكياً أو مقلداً أو منبهاً أو مصوّراً أو مقرّباً للمعنى الذي يريده بالجرس الصوتي المفرد الذي يتبادر إليه فيحاوله ويعالجه ويهجم عليه . ويحسن أن نبدأ لك ذلك على ترتيب القسمة التي عرضناها في الكلمة السالفة متتبعين مدارج الأصوات من أقصى الحلق ، مؤلفين بين الأصوات المشتركة الصدى ، المتقاربة المقاطع والمخارج .

وأول ذلك ما يسمونه « الحروف الحلقية » ، وهي حروف المخارج الثلاثة الأولى ، وهي سبعة على الترتيب :—

الهمزة «١» ، والألف «٢» ، والهاء «٣» ، والعين «٤» ، والحاء «٥» — والغين «٦» والخاء «٧»

فأنت إذا أردت أن تعرف معاني هذه الحروف فارجع إلى الفطرة الأولى من العبارة ، وما تحملك عليه إرادة التعبير من التفريج عن نفسك بالمنطق أو الصوت الذي هو قوة كامنة في الإنسان لا بدّ لها من العمل ومطاوعة حين تجد الخاطر الذي يدفعها إلى تقرير طريقها في العمل

وأول ذلك ان ننظر الى الحاجة التي تدفع الى التعبير ، ونعدّ من أوائل الحاجات التي يُدفع الانسانُ للتعبير عنها : النداء والتعجُّب والتأوُّه والأنينُ والاشارةُ والتنبيهُ ، وغير ذلك مما تدعو اليه معاناة الحياة الفطرية الاولى التي بدأ الانسان بها عمله على الارض . فاذا استوعبت أمثال هذه الضرورات وجعلت تأخذُ نفسك بتدبرها في فطرة الانسان رأيتَ ان النداء مثلاً يعتمد على أصوات الحلق المقذوفة من الجوف مطلقة في الهواء لتبلغ بالصوت أقصى ما يطيقه تدافعُ الهواء الذي يحمله . وكذلك الاشارة والتنبيه يتطلبان من المشير والمنبه إرسال الصوت خارجاً من الحلق الى حيث يلاقي الهواء المقابل لفم الانسان . ثم اذا أنت أردت كل حرف بما يتجلى من صداه المقرون به — على المعاني الأولى — استطعت ان تقرّر لصدى الحروف معاني من النفس او من المحاكاة او من التمثيل لحركة او الصوت المسموع او غير ذلك

ونحن انما نتكلم عن العربية ، لأنها في اعتقادنا — بعد الذي مارسناه من معانيها — أدقُّ اللغات احتفاظاً بالمعاني الفطرية للحروف ، بل هي اكثر اللغات احتفاظاً بحركة الانسان الأوّل في الاشارة الى المعاني ، وذلك حين يريد ان يقرن الصوت بحركة دالّة على معنى من الاشارة يُفهِم بها المتكلمُ مخاطبَه ما يريد ان ينبهه اليه او ان يحمله على فهمه . فنحن مختصرون طريق الكلام عن الحروف المجردة وحدها بادماج ذلك في تركيب الحروف بعضها مع بعض، غير مخلّين بالبيان عن المعاني التي يتحملها الحرف الواحد من حروف هذا اللسان . ولا يهولنك ما سنقدم عليه ، ولا يذهبنَّ بك انا لا نستطيع ان نجريَ اللغة كلها على هذا الأصل ، كلاّ ، بل نحنُ نستطيعُ ذلك . ونستطيع ان نحاول معرفة الاطوار الاجتماعية والعقلية والخلقية والنفسانية والمدنية التي مرّت بالشعب العربيّ . وهو شعبٌ كما نعلم لا يزال محصوراً بين الحدود التي ضربتها عليه الصحراء ، ولا يزال حيًّا على نمط من العيش لم يدخله كثير من التبديل ، وإن كان قد اختلط بما اندفق اليه من نتاج الحضارات الأخرى التي اختلطت ببعض أمواجه ثم ارتدّت اليه

فخذ منه الآن :— الهمزة والهاء والألف . وهي الحروف الحلقية المطلقة التي تُصوّت حين تلاقي الهواء ولا يقف في سبيلها ما ترتطم به من الثنايا أو الاضراس أو الشفة ، ولا يعمل معها اللسانُ عملاً في تكوين صداها أو جرسها — واعلم انا لن نفرق كثيراً في هذا الذي أردناه بين الهمزة والألف ، وانا سوف نجعل عملها في العبارة واحداً ، هذا على أن الألف في أصل معناها تخالفُ الهمزةَ من وجوه كثيرة . وليس هذا موضع بيان الفروق بينهما ، وأحق بذلك ما نريده ان شاء الله من الكلام عن الواو والياء والالف

فهل تنكر ان الرجل اذا خاف أو فزع أو رغب أن ينادي أو ان يشير — وهو ناقص

الآلة الصوتية — فأول ما يبدأ به أن يقذف الصوت مفصولاً من الحلق بأقصى ما يستطيع، كلاً. وإذن فالهمزة الممدودة هي الصدى الصوتي الذي يراد به التنبيه والاشارة والنداء. وكذلك هو في العربية. فالهمزة في العربية لا تزال تحتفظ بجميع هذه المعاني وما يتشعب منها تقول: «أمحمد» تريد «يا محمد» وإنما تنشأ الحرف «يا» في النداء بعد، لانه تسهيل لمجرى الهمزة وتليين لها، ثم انقلب بعدُ حرفاً من الحروف «الشجرية» التي في مخرج الفم كالجيم والشين لأسباب أتت بعد خروج اللغة من الطور الاول، والا فان الاصل الذي لا شك فيه ان الياء أقرب الى الحروف الحلقية منها الى الحروف الشجرية، فانطق «آه»، «ويه» تجد صدق ذلك[1]

ثم انظر، فالهمزة حرفٌ للاستفهام كقولك: أأنت؟، وهي حرف للتعجب عن طريق الاستفهام. وقد احتفظت بها العربية في وجوه كثيرة اخرى كالتفضيل والتعجب[2] كقولك ما أحسنها، وهو أكرم من فلان، فثبات الهمزة والاتيان بها في هذه الابواب مأخوذ من الاصل الذي اقيم عليه معنى الحرف من فطرة الانسان. فكأنهم أرادوا — بالبدء بها — اظهار المعنى الذي يحمله صدى الصوت من الاستفهام والتعجب، والتفضيل فرعٌ من تعجبك من الشيء واستكبارك له. وكذلك احتفظت العربية بهذا الحرف في اكثر حروف الاستفهام كقولهم «أين» «أنّى» وما يدانيها كقولهم «أم» كذلك فيما يقارب ذلك من المعاني كما في قولهم «أو»

ويشترك مع الهمزة حرفٌ آخر هو قريب منها، وهو «الهاء»، ففي لغات بعض العرب يقولون في الاستفهام في «أزيد؟» «هزيدٌ؟». وكذلك وقعت هي في «هَل؟» و«هلا!» وان كان اكثر موردها على التنبيه والدلالة والاشارة، كما وقعت «ها» في «هذا» و«هؤلاء» و«هي»، و«هو» وهذان الحرفان الأخيران، وان عدّهما النحاةُ من الضمائر واجروا عليهما احكاماً، الا انهما في اصل معناهما للاشارة بغير شك. ولمثل ذلك قال المفسرون في قوله تعالى «وآتوا النساء صَدُقاتهنَّ نِحْلةً فإنْ طِبْنَ لكم عن شيء منهُ نفساً فكلوهُ هنيئاً مريئاً» ... «الضمير في منهُ» جار مجرى اسم الإشارة كأنه قيل «عن شيء من ذلك»[3]

---

(١) أما العلة في أن الياء صارت بعد حرفاً من الحروف الشجرية، فسنعرض له في كتابنا عن سر العربية ان شاء الله

(٢) ومن باب ذلك الهمزة في أوائل أوزان جموع التكسير أيضاً في مذهبنا

(٣) نحن أننا لا نريد بذكر هذا المثال الا ان نضرب المثل بأن «ها» هي الهمزة للاشارة ثم صارت الضمائر بعد ذلك وجرى حكمها في النحو العربي غير الذي جرى عليه حكم الاشارة، ولكن لا علاقة لنا بما هو النحو الآن، وما نحن فيه من معاني الصدى الصوتي الفارز للحرف

وكذلك جرت العربُ على سُنّة إبدال الهمزة هاء والهاء همزة لتقاربهما في الدلالة كما يقولون في « أراق ، وهراق » و « لأنك ، ولهنّك » وغير ذلك مما لا نريد استقصاءه الآن

***

وانت اذا اخذت الضمائر اول ما تأخذ وجدت الاشارة فيها ظاهرة ، فما قولهم « أنا » الا إبانة عن الصوت « أنْ » [1] المدغم في الخياشيم مقترناً بإشارة المتكلم الى نفسه بيده ثم تركوا الاشارة وعمدوا لفتح النون — اقاموا ذلك مقام الاشارة ، فلما اراد ان يعبّر عن المخاطب قرن « أن » بحركة يده في صدر مخاطبه . ثم استغنوا عن ذلك بتمثيل صوت اليد وهو يقرع الصّدر في رفق بأخف الحروف النطعية التي يرتطم فيها الصوت بالحنك الأعلى محصوراً باللسان فقال : « أنت » [2]

فاذا فرّقت في تمسك هذا المذهب فأدرْ عليه سائر حروف الحلْق عالم نذكره ، وتبين فروق مواقعها وتدبّر ذلك كل التدبّر ، تجد المذهب حسناً سهلاً طيعاً لا يتخالف عليك الا قليلاً . ونحن نأخذ الآن في بيان بعض ذلك من جمهور بعض الكلام العربيّ المؤلّف من ثلاثة حروفٍ أحدها مضعّف ، ليكون ذلك المذهب اقرب إليك . فان لكلّ حرفٍ معنى ، فاذا نحن اخذنا في الثلاثيّ غير المضعّف اقتضانا ذلك ان نعرض لمعنى حروف ثلاثة ، والمؤونة علينا في تقريب ذلك اليك ، والكلفة عليك في تعاطي ما تناولت — هي في ذوات الثلاث اشد منها في ذوات الحرفين

وهذه الحروف الحلقيّة لم تجتمع في العربية على التضعيف الا قليلاً لقرب مخارجها كما تعلم فقالوا « أحّ » و « أهّ » و « أخّ » ولم يقولوا « أعّ » ولا « أغّ » ، ولا « أأّ » لأن هذه ثقيلة لا تأتلف . وهذه الثلاثة انما تدل على إشارة وبيان فالصوت فيها يحمل معنى التنبيه . ألا ترى ان قائل « أحّ » و « أخّ » انما يريد التألم والتوجع وابداء ذلك والدلالة عليه ، ولكنه مع الحاء يريد التنفيس عن نفسه لما يعاني من شدة الألم والوجع . وكما يكون من صوت المغيظ المحنق

(١) اجعل تنطق هذه الكلمة صوتاً مبهماً في الخياشيم غير مبين في نطق « النون » ويكون الفم مفتوحاً مطبقاً ، واللسان ساكناً لاصقاً أسفله بالثنايا العليا من الداخل

(٢) اقرع صدرك بيدك ، ومثّل صوت ذلك بلسانك مع التخفيف تجد الصوت مقارباً والدلالة بينة ، وهذا أحد معاني التاء

والمغموم المتكر فقالوا « الأحيح : الغيظ والتنقُّس » وإنما هو في الحقيقة صوت الممتلئ غيظاً حين يتفرَّج بهذا الصوت الذي يصدره من جوفه

ثم انظر ... فانهم لما ارادوا هذا المعنى قسمه من التأوه والغيظ والغم اتخذوا « أخ » والخاء حرف حلقي جافٌ غليظ يكون معه الاستعلاء والترفع والاشمئزاز ، فقول أصحاب اللغة « أخ » : كلمة توجع وتأوه وغيظ — قول ناقص لا يفضي الى المعنى الحقيقي ، وهو أن متوجع يبين عن اشمئزازه وتكرهه وتقذره ، ولذلك ما ورد في اللغة أن « الأخ » : القذر ، يقول الراجز يذكر سنه وعجزه وضعفه

واتقت الرجل فصارت نخّا وصار وصل الغانيات أخّا

أي قذراً لا يقربهن ، أو لا يقربنه

وكذلك ترى انهم لما راموا التعبير في الاولى قدموا له « حاء » ببحة التي فيها ، وهي لين ونعومة ، وهي قابلة للدوران مع الهمزة في التكرار ، لأن الذي ينطقها يريد معها أن يكررها ويتلوى معها ، ويحكي لها اخلاصه لما يقاسيه من الألم او الغيظ ، والخاء لجفوته وانغلاقه في غار الحنك واستعلائه لا يطيع على مثل ذلك ، بل اكثر عبارته المقترنة به هي في الوجه والشفتين والأنف ترفع من بعضها وتخفض من بعض

ولكنهم لما أرادوا العبارة عن التوجع مع اللين والضعف والحسرة التي تلحق المتأسف المكروب النفس بغير إضمار للحقد والغيظ كما في « أح ، وأخ » قالوا « أه » و « أوه » و « آه » ، وهذا اشارة الى تعب النفس ، واجتماع هذين الحرفين الحلقيين الهوائيين الضعيفين هو تمثيل لحركة التوجع من ارتداد النفس بطيئاً مع انهزام خصر المتوجع وانثناء صدره واستسلامه للضعف واسترخاء اعضائه وتكسر اجفانه على عينيه

وقالوا ايضاً من ذلك ما يكون في الحيش من الأصوات للنداء والايقاظ والتنبيه والتوجع والاشارة وتداخل الاصوات بعضها في بعض وزجر الابل وما الى ذلك « آه » ، يقول الشاعر

إن تلق عمراً فقد لاقيت مدَّرعاً وليس من همه إبلٌ ولا شاء

في جحفلٍ لجبٍ جمٍّ صواهله[1] بالليل تسمع في حافاته : آه

(١) [illegible] « صواهله » [illegible] الابيات [illegible] « بالليل » [illegible] صوت انشاد الشعر [illegible] قراءة الشعر

وقد أفرد أصحاب اللغة هذه المعاني التي ذكرناها ، فقالوا : « آه » حكاية لصوت زجر الابل ، وليس كذلك ، وهذا البيت يدل على خلافه كالذي قدمنا في بيان معناه . فأنت ترى ان هذا الحرف « الهمزة » يحمل معهُ أين كان معنى الصوت المفصول الاوَّل ، وهو الاشارة والتنبيه وما الى ذلك من استفهام وتعجب وما يتفرع منها

واما العين والحاء والغين والخاء . فهذه الحروف الاربعة الحلقية لا تصلح للاستفهام والتعجب وما اليه لانها في الحقيقة أحرفٌ غير خالصة بين الحلق والهواء الذي يلاقيها خارج الفم ولما في جرسها — الا الحاء — من التكلف والضغط والتعسُّر في المخرج وارتطامها قبل الهواء ببعض أجزاء الفم عند مقطعها الذي عن صداها اذ تنطق : « إعْ ، إغْ ، إخْ » . والحاء ، وإن كانت أسهل وأخف وأسلم ، فهي مع ذلك مقرونة بحشرجة طفيفة رقيقة غير مُستقلة مع كفّ النَّفَس المقذوف عن الانطلاق الى نهاية تصادمه بالهواء خارج الفم ، وإنما تصلح للدلالة على نوع الصوت المراد تمثيله ، أو تصوير الصوت مقروناً بالحركة التي تكون معهُ او تلحقهُ من جرَّاء ألم يدعو الى هذه الحركة ، كما قالوا تَهَوُّعاً في الرجل اذا ذَرَّعهُ القيء — فمدَّ ذراعيه على الارض وأقبلها بجسمه ونَفَضَ اليها رأسه وتمايل على الارض ليتقيأ : « هَاعَ » ، فهذه بلا شكٍّ حكايةُ صوت القيء أوَّلَ ما يكون بالهاء ، ثم ما يكون من تضرُّب الطعام الآثر في الحلق كصوت العين ، ثم انسياق الحنجرة وتصويتها في هذا الانطباق بصدًى كصدى العين

* * *

هذا ونحن لا نستطيع ان نستوفي لك في هذه الكلمة كل الذي نريده من المعاني ، فهو كما ترى باب واسع متداخل يفضي قولٌ منهُ الى قول ، وهو مما لا يمكن حصره في مثل هذه الكلمات ، فان لكل حرف من حروف العربية مجرى ودرباً تتفرع منه شعب ، ولا يمكن استيعاب ذلك الا بالاطالة والدُّربة والتمثيل ، وذلك مما يقتضي انبساط النفس ، وقلة الشغل وخفوف الزمن . ثم نحن لا نكتب هذا الا لتخفيف الخاطر او شبه ذلك ، فاذا أردنا ان ندخل بك من هذا الباب — ونحن ما نحن — انبتَّ الجهد بنا دون ذلك . فاقبل بعض العذر ، ونقصد بعض التوالي ، ولكنا نستطيع ان نبين لك بعض الابانة عن الاصوات وحكاياتها التي جعلتها اللغة لها في اعمال الانسان والحيوان والجماد ، ولكنه تدور فيها هذه الحروف الحلقية دوراناً طبيعيًّا دالاً صريحاً متدرجاً على بيان نوع الحكاية او التمثيل ... فكأنك به